نشوء العمل وناموس التوازن

اذا حللنا لفظة « عمل » وما يرادفها مثل نصب وشغل وجدنا فيها كلها معنى الالم فكيف يلتصق معنى الالم بالعمل ؟ دع عنك الالفاظ الصريحة التي تمزج الالم بالعمل مثل كدّ وكدح وعانى وكابد

كان الانسان قبل ان تنتظم له جمعية بشرية يعترش الاشجار ويقتات بأثمارها وما يمر به من الحشرات وصغار الزواحف لا يعرف زرعاً ولا صيداً . فاذا كان موسم الأثمار مقبلاً كفاه هو وجيرانهُ وعاش معهم في وئام وان لم يكن مقبلاً طرد القويُّ الضعيف واستأثر بالقليل الذي عندهُ

وهنا الحاجة تفتق الحيلة . فان هؤلاء الضعاف المطرودين يجتمعون معاً تربطهم رابطة الحرمان ثم يشتغلون مجتمعين في رعاية الاغنام اولاً لانها اقل الاعمال عناء بل هي لا تكاد تكون عملاً ثم يهتدون بعد ذلك الى الزراعة

فلا عجب ان ينظر هؤلاء المحرومون الى العمل كأنهُ نصب وتعب . وان يتركوا في هذه الالفاظ ندوباً من جرح الهزيمة

فالجمعية البشرية الاولى وما تلاها من التمدن لم تكن في الحقيقة الاَّ وليدة الضعف — ضعف الذين لم يقووا على مغالبة الاقوياء

فعند ما طُرد الضعيف فكَّر ثم تضامن ثم عمل . وهذا الضعف الذي كان ينميهِ الحرمان والجوع اضعف شهواته واخضعهُ لنير العمل . وضعف الشهوات يساعد الانسان على العمل لان القوة الحيوية اذا اشتدت — ودليلها اشتداد الشهوات وتلهبها — عاكست صاحبها في شغله ومالت بهِ الى النزق والمرح

ولهذا السبب رأى الانسان بعد التجربة المتكررة في جميع البلاد الزراعية ان الثور لا يصلح لان يقرن الى النير الاَّ بعد ان يخصى والفرس لا يذلل الاَّ اذا جاع

والامم التي تتصف بانها امم عملية هي امم الشمال مثل المانيا وانجلترا . والشهوات عند افراد هذه الامم اضعف ما تكون اذا قورنت بما هي عليهِ عند غيرها . وذلك لان بلادها باردة يستنزف بردها قوة عتلية من اجسام السكان

وما ينصرف في مقاومة البرد ينقص من القوة الحيوية ولهذا السبب تجد اهل الشمال هادئين يخضعون لنير العمل

فالضعف العام سواء كان ناشئاً من مرض او من حرمان من ضروريات الحياة وما يتلو هذا من ضعف الشهوات يجعل الانسان خاضعاً لنير العمل الذي لا يطيق احتمالهُ من كان كثير القوة الحيوية

وهناك شاهد آخر يدعم هذه النظرية وهو ان النوابغ في كل امة كانوا مرضى في صغرهم فتعودوا القراءة وشغفوا بالمطالعة او الشغل من اي نوع كان وهم في دور هذا المرض او في ما جاء في أثرهِ من الضعف وخمود الشهوات

وفي كل امة طبقة من الناس تحمل عبء العمل وتقوم بحاجات الامة من صناعة وزراعة وخدمة . وهي طبقة العمال وهي كما هو معروف اقل الطبقات ربحاً واكثرها حرماناً فهي تعيش في حرمان وفقر وسوء حال — عوامل تفت في حيويتها وتخمد شهواتها ثم تخضعها لنير العمل

فطبقة العمال تعمل لانها ضعيفة الجسم قليلة الشهوات لقلة الغذاء الذي تتناولهُ وسخافتهِ وسوء مساكنها ونقص الوسائل الصحية التي تحيط بها . وهي لولا ذلك لتمردت

ألا ترى كيف ان عمال اوربا الذين عرفوا شيئاً من رفاه التمدن وزادت اجورهم حتى صارت تكفي لمعيشتهم قد انتعشت فيهم القوة الحيوية فصاروا يتمردون ويعتصبون ويقلبون الحكومات ؟

ثم ألا ترى كيف ان اكثر عمالنا استياء وتذمراً واشدهم تشوقاً الى تحسين حالهم وطمعاً في زيادة اجورهم واكثرهم اعتصابات هم عمال المدن الكبرى مثل اسكندرية والقاهرة الذين حسنت حالهم فعلاً وكثر غذاؤهم وصحت اجسامهم

قال لورد كرومر مرة في احد تقاريرهِ انهُ لا يخشى ثورة في مصر لان الناس لا يثورون ما دام الغذاء وافراً . ولو عاش الى العام الماضي لرأى ان الشبع لا الجوع هو الذي يدعو الى الثورة اذ ليست الثورة الاَّ نتيجة الحيوية المفرطة في الامة . وهذه تواريخ مصر مشحونة بالمجاعات وهذه الهند لا يمضي عليها عقد الاَّ وتنتابها مجاعة ومع ذلك لم تقترن احدى هذه المجاعات بثورة او نهضة

لم اكتب هذا تبريراً للواقع بل تقريراً . وانما اقول ان تقدم الميكانيكيات في المستقبل كفيل برفع عبء العمل عنا جميعاً الاَّ في فترات صغيرة لا تزيد على

ساعة لكل فرد في اليوم. وقبل ان نصل الى هذا « المستقبل » يجب ان ندعي ونغرر بالناس ونقول لهم ان العمل فضيلة ليس بعدها فضيلة وان نجيع طبقات العمال جوعاً جزئياً حتى يحملوا النير

***

اما ناموس التوازن فواضح في الطبيعيات ويستطيع عارف مبادىء هذه العلوم تحقيقه في الجمادات بتدريبات معلومة لا يتسع المقام لسردها

وهذا الناموس يشمل ايضاً عواطف الانسان والحيوان غير ان دقة الآلة الحيوانية واشتباك انسجتها وتشعُّب اعصابها تحول دون تبيين هذا الناموس في اعمال الاجسام الحية مع وضوحه في الاجسام غير الحية اعني الجمادات

اما اعمال العقل وهو مصطرع العواطف وميدان تنازع الشهوات فاعصى ما تكون خضوعاً للتدريب الدقيق لانها لا تلمس باليد بل تدرك بالذهن ادراكاً تساق اليه بحكم المشاهدة والتكرار

ولذلك فادماج هذه الاعمال في ناموس طبيعي عام يحتاج الى جمع شتات الاختبارات المختلفة والمشاهدات المتكررة حتى يقوم الاختبار الشخصي مقام « تدريب » المعمل الطبيعي او الكيماوي

واليق ما نمهد به لهذا البحث هو ما نشاهده على الدوام في انفسنا وغيرنا من ان الانسان يضطر الى الراحة بعد العدو السريع وبمقدار ما في هذا العدو من السرعة او البطء تكون الراحة طولاً او قصراً

فحاجتنا الى الراحة بعد العدو السريع اشد جداً من حاجتنا اليها بعد السير الوئيد. وبعبارة اخرى ان الجسم يميل الى الراحة بعد العدو لانه يتطلب بطبعه التوازن حتى تعود اليه الحالة التي كان يكون عليها لو لم يعدُ

وهذا هو السبب في ان اشد الحيوانات سرعةً في حركته مثل القط هو ايضاً اكثرها نوماً. لان الحركة العنيفة تصرف من قوة القط مقداراً لا تعود بعده حالة التوازن اليه الاَّ بعد نوم عميق طويل يعوض منه ما فقده

فالقط نؤوم مكسال لان له هبات رائعات يرتفع فيها فوق نفسه ويسرف فيها من قوته فهو في قتاله وزواجه واصطياده اسد صغير لا يني ولا يتئد

ولو قابلنا بين الجمل والفرس وكيف ان العرب استخدموا الاول في اسفارهم البعيدة واستعملوا الثاني في حروبهم وغزواتهم لمثل امامنا ناموس التوازن هذا الذي نحن بصدده

فالجمل يتئد في سيره وكأنهُ لا يصرف من قوتهِ الاَّ بتقتير فهو لذلك يستطيع الاسفار البعيدة بخلاف الفرس فانهُ متلاف مضياع لقوتهِ يعدو ويستريح ويهب ويخمد فهو لذلك يمكّن فارسهُ من الانقضاض كالصاعقة في الغزوات والغارات

والفرس مع ذلك ليس اقوى من الجمل لان الاثنين يستويان قوة او يكادان وانما كان توازن القوة في الجمل دائم الاعتدال بخلاف ما هو في الفرس اذ هو ابداً في مد وجزر

وهكذا الحال في شهواتنا وعواطفنا . فاذا نشب بيننا وبين احد خلاف ما واحتددنا وهاج هائجنا كنا عقب هدوء العاصفة اشد ما نكون ميلاً الى التسليم بما يطلبهُ منا خصمنا ومصالحتهِ . وهذا لان الحدة التي ابديناها في وجه خصمنا قد اخلّت بتوازننا ومالت بهِ ميلاً بعيداً فلا يعود هذا التوازن الذي تتطلبهُ طبيعة عواطفنا الاَّ بميل اخر من المسالمة والمصالحة يوازي ذلك الميل في الغضب. وهذا هو اصل الاعتقاد الراسخ عند الناس من ان اكثر الناس ضوضاء وجلبة وغضباً في معاملتهم لغيرهم هم اطيبهم قلباً واقلهم ايذاء لغيرهم. لانهُ يعقب هياجهم على الدوام تسليم لا يكون في الذين لا يغضبون ولا يهتاجون

او لا ترى كيف ان الوارث اذا بلغ رشدهُ وارتفعت عنهُ وصاية ولي امرهِ وكان قبلاً يحبس عواطفهُ ويقيد شهواتهِ لا يكاد يملك من امرهِ حتى ينطلق كالسهم يعيد توازنهُ بالاستهتار والانهماك حتى صار عامة الناس يضربون بهِ المثل

ألا نشعر نحن ببعض الاغتباط والانقباض ينسدلان علينا كالحجاب بُعيد افراط في السرور والانشراح

اما مات لك ايها القارىء عزيز فاشتد عليهِ غمك ونال من نفسك واوجعك مصابهُ حتى ... حتى ضحكت ؟

الا ترى ان البلشفية هي في الواقع انطلاق لعواطف حبست زماناً طويلاً واخلت بتوازن كل فرد لتناهي الحكومة القيصرية السابقة في الضغط حتى انطلقت كالسهم متناهية هي الاخرى في الحرية ؟ وقس على ذلك

سلامه موسى